الفصل الخامس

الإسرائيليون القدماء

كلمة لا بد منها

سيلحظ القارئ أن هذا الفصل هو الفصل الوحيد، من بين فصول الكتاب الخمسة، الذي لم يزين صفحاته أي عمل فني، ذلك لأن الأعمال الفنية الخالدة التي قدمتها للبشرية الحضارتان الفرعونية والرافدية، بخاصة، ما كان لها أن تشهد النور لو لم تتهيأ أسبابها من الاستقرار والتأمل والوحدة الثقافية و.. تلك الأسباب التي لم تتوفر لليهود في يوم من الأيام. نقرأ في سفر أخبار الأيام الأول الفصل السابع عشر: «فكان في تلك الليلة أن صار كلام الله إلى ناتان قائلاً: اذهب وقل لداود عبدي هكذا يقول الرب لا تَبْنِ لي أنت بيتاً للسكن. إني لم أسكن بيتاً مذ يوم أخرجت إسرائيل إلى هذا اليوم، ولكني كنت من خيمة إلى خيمة ومن مظلة إلى مظلة»، فاليهود حتى القرن العاشر أو التاسع ق.م - الفترة التي كان فيها داود على رأس اليهود لمحاربة الفلسطينيين أهل البلاد - كانوا جماعة من البدو الرحل ما أن استقر بهم المقام في قسم من فلسطين حتى شتتهم سبي آشور من جديد.

وسيلحظ القارئ أيضاً أن الكاتب قد اعتمد، في هذا الفصل، اعتماداً كلياً على التوراة، ولو لم تتوفر بين يدي القارئ العربي مؤلفات عديدة تناولت التوراة بالتحليل والتفصيل، لتحتم علي هنا أن أمهد للفصل بكلمة تضع القارئ على حقيقة التوراة كما وصلت إلينا اليوم. ولكنني، على الرغم من كل شيء، أدعو القارئ للإطلاع على مؤلفي الأستاذ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ولغز عشتار للتعرف على البنية الإجمالية لثقافة المنطقة وحضارتها وما كان لتلك البنية الثقافية من أثر بالغ في رسم كل جديد لاحق.. وعندها (عند ذلك) سيكتشف القارئ الأصول التي اعتمدتها التوراة فجاءت في أساسياتها - المترجم.

تسلسل زمني

نحـــــــــــو ٢٠٠٠ ق.م	أبرام يغادر أور
نحـــــــــــو ١٢٥٠ ق.م	نزوح موسى عن مصر، ظهور الرب لموسى في سيناء
نحـــــــــــو ١٢٠٠ ق.م	الوصول إلى أرض كنعان
القـــــــرن التاســـــع ق.م	النبي صموئيل
نحـــــــــــو ١٠٠٠ ق.م	داود
مـــن ١٠٠٠ حتـــى ٤٥٠ ق.م	الأنبياء
نحـــــــــــو ٩٥٠ ق.م	سليمان
القـــــــرن الثـــــامن ق.م	النبي أشعيا
مـــــــــــن ٥٨٧ ق.م	الأسر البابلي لليهود

بنو إسرائيل

«حبك أطيب من الخمر»

لو يؤلف «بنو إسرائيل»، قبل الخروج[1]، شعباً، ذلك لأن أفراد الأسرة الواحدة هم الذين تكاثروا على مر العصور، فتوزعوا في قبائل وعشائر. ثم إن انتمائهم كان يرتكز على عقيدتهم المشتركة أكثر منه على قربى الدم، أما عاداتهم وتقاليدهم فلم تكن مستقرة، بل تغيرت دوماً بفعل التأثيرات الخارجية، ولم يكن لإبراهيم نفسه ولا لأبنائه وأحفاده مفاهيم أخلاقية محددة ودقيقة كما لم يكونوا بمدركين لا للخير ولا للشر، لا بالمسموح به ولا بالمحظور، فكانوا يجهلون أيضاً ما يتحتم عليهم القيام به أو الإقلاع عنه ليسلكوا سواء السبيل. أي ما يدعوه العهد القديم بـ «يطيب للرب»، فسعوا جاهدين، وعلى غير هدى، ليكونوا أبراراً، في نظرهم هم قبل غيرهم، وقد تبين لهم دائماً أن محاولاتهم تلك، إن هي إلا آثام وخطايا، ولكن، ما هي الخطيئة إذن؟

ارتكب الرجال والنساء المعاصي واستسلموا للرذيلة، غير أنهم لم يكونوا بمدركين لانحرافهم عن طريق الهداية، ما دام الرب الإله لم يظهر لهم سخطه وغضبه، بأن أنزل بالمذنبين عقاباً ما.

كانوا سلماء النية سذجاً غير مدركين، ثم أنهم قاموا بما قام به أسلافهم، إذ تكيفوا مع أخلاق الشعوب والقبائل التي عاشوا بين ظهرانيها، فاقتدوا بعاداتها.. فهل هم، والحال هذه، مذنبون، إن هم جهلوا مواطن الشر[2]؟

فليس ثمة تعاليم بمقدورهم الرجوع إليها خارج قوانين بلاد الرافدين، وخارج البلاد التي جابوها وأقاموا بها، وليس ثمة أحد يملي عليهم كبح غرائزهم وكبتها ومنع نسائهم وبناتهم من المشاركة في العربدات الجنسية التي كانت تقام في أعياد الخصب، وليس ثمة من يحظر عليهم الاقتران بنساء أجنبيات أو يحول بينهم وبين إرواء ميولهم الجنسية المثلية (اللواط - السحاق)، كما كانوا يجهلون أو بالأحرى، لما يعرفوا بعد، ما يتحتم عليهم القيام به أو ما ينبغي لهم الإقلاع عنه.

١- خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى متجهين إلى فلسطين، وقد اختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا الخروج: ١- في القرن السادس عشر ق.م، ٢- في منتصف القرن الخامس عشر ق.م، ٣- نحو عام ١٢٩٠ ق.م، ٤- في عصر منفتاح أو حوالي عام ١٢٣٠ ق.م - المترجم.

٢- من الواضح هنا أن المؤلف يتقدم بتبرير ساذج للروايات الفاحشة الواردة في سفر التكوين.

ومن قصص الخطايا التي ارتكبها إبراهيم وذريته، والكفارة التي فرضها الرب عليهم، أدركوا، حقاً، أن بعض الأفعال منافية للأخلاق، وأن على كل منهم، بدءاً من الآن، الإقلاع عنها، كيلا يَجُرَّ على نفسه سخط الرب وثأره.. ونحن نعني بهذه القصص: «كتاب العهد القديم» - التوراة -

إن الطاعة غير المشروطة، والمصحوبة بثقة عمياء، في كلام الرب، كانت البرهان الوحيد على سلامة سلوكهم وصحته، ما دام هذا السلوك غير محدد في أوامر ونواهٍ معلنة وصريحة، وعلى هذا، فقد استمر إبراهيم وذريته، إن صح التعبير، يجرِّبون ويبلون ويركنون إلى بصيرتهم الخاصة كيلا يأثموا ويرتكبوا الموبقات، وإلا فإن الرب سينزل بهم شر العذاب.

وقد نظم سلوك بني إسرائيل الخُلُقي ما كان يدور بين الرب وأسلافهم من قصص وأحاديث، إلى حين إعلان موسى لوصاياه العشر ولقوانينه الأخلاقية التي سنها للمستقبل. ثم إنهم بفضل هذه التعاليم الملزمة، التي أمرهم بها الرب فخضعوا لها، أخذوا يتميزون عن الآخرين، ليس بمظهرهم وسلوكهم الخارجيين فقط، بل بتجربتهم الروحية أيضاً، ذلك لأن هؤلاء الآخرين لا يقاسمونهم إيمانهم بالرب ولا خضوعهم، غير المحدود، لأوامره[1].

وليس ثمة وصف متكامل يشير إلى حقيقة هذا الإله، الكلي القدرة، والكلي الوجود، كما أننا لا نعرف كيف أكمل المؤمنون الصورة الإلهية لوحدانيته وتفرده، تلك الصورة التي حبوها بصفات إنسانية. فهو لم يكن مرئياً، وليس بمقدور أحد أن يتطلع إليه أو ينظر إليه مواجهة، ولم تكن له ثمة تماثيل، وهو يختلف تمام الاختلاف عن بقية الآلهة الأخرى: إنه مقيم في الفكر والمخيلة.. ومع ذلك، فإن الصفات التي أطلقها عليه العهد القديم وما صدر عنه من أقوال، كانت متناقضة، بل تنسجم مع ما كانت عليه طبيعة عباده من الخلق، كان غضوباً ووديعاً، دموياً ومسالماً، معانداً وذا نزوات، والرحمة لا تعرف إلى قلبه سبيلاً، فويل لكل من لا يمتثل لصوته لأنه لا بد رازح تحت لعناته:

«فتكون ملعوناً في المدينة، وملعوناً في البرية، وتكون ملعونة سَلَّتُك ومَعْجِنك، وملعوناً ثمر بطنك وثمر أرضك، ونتاج بقرك وغنمك، وتكون ملعوناً أنت في دخولك، وملعوناً أنت في خروجك، يرسل عليك الرب اللعنة والاضطراب والوعيد في كل ما تمتد إليه يدك مما تصنعه، حتى تَبيد وتَهلك سريعاً، بسبب سوء أعمالك بعدما تركتني، يلصق الرب الوباء بك إلى أن يفنيك من الأرض التي أنت داخل إليها لِتَرِثَهَا، يضربك الرب بالضَنى والحمى والبرداء والتهاب مع الجفاف والصدى

١- لم يخضع اليهود، طوال تاريخهم إلا إلى أوامر الرب في إبادة سكان البلاد، فلطالما، انتهكوا وصاياه الأخرى، والتوراة تثبت ذلك - المترجم.

والذبول، فتطاردك حتى يَهْلَكَ، وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل من السماء عليك حتى يبيدك. يجعلك الرب تنهزم أمام أعدائك، تخرج عليهم من طريق واحدة وتهرب من أمامهم من سبع طرق، وتكون موضوعَ ذعرٍ لجميع ممالك الأرض. وتصير جثتك مأكِلاً لطيور السماء ووحوش الأرض وليس من يُقلقلها. يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكة فلا تستطيع مداواتها. ويضربك الله بالجنون والعمى وحيرة القلب، فتتلمس في الظهيرة كما يتلمس الأعمى في الظلمة، ولا تنجح في سبلك وتكون مُستَغلاً مسلوباً طول أيامك وليس لك مخلص... تخطب المرأة فيغتصبها رجل آخر، وتبني بيتاً ولا تسكن فيه، وتغرس كرماً فلا تأكل بواكيره، ويُذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه... حتى تصيرَ مجنوناً... يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين فلا تستطيع مداواته، من أخمص قدمك إلى قمة رأسك...»

هذه اللعنات وما أنزل «الرب المخيف» من لعنات أخرى قاسية على بني إسرائيل، كان إبراهيم يجهلها، على الرغم من علمه بأن الله قد أنزل عقابه بالبشر «طوفاناً» لِما لحق بهم من خزي وعار، وأن سلفه نوح لم يكن لينجو هو وذووه لو لم يكن «باراً» مؤمناً بكلام ربه الذي لم يتطرق إليه الشك مطلقاً ممتثلاً لأوامره وخاضعاً لها.

ائتمر إبراهيم، أيضاً، بأمر الرب، محبة له وخشية منه. وإننا لندهش، حقاً، بصدق العهد القديم وصراحته البالغين في وصفه لإبراهيم وأفعاله المثيرة للريب، إذ كان يدعى أبرام، وبخاصة عندما ندرك أن هذا الموصوف سيكون، في المستقبل القريب، محط احترام المؤمنين جميعاً، بوصفه الجد الأكبر للمسيح. بيد أن الكتاب المقدس يرغب، بل ينبغي له أن يكشف عن الحقائق ويعلمها للمؤمنين، لا أن يخفيها وينكرها. فكان من الضروري أن يصف كيف عاش الناس حياتهم حقاً، لا أن يروي لنا أنهم عاشوا أبراراً، فمن زلاتهم وخطاياهم يستخلص الخلف الدروس والعبر. في البدء نظم كل منهم سلوكه وفق عادات البلاد، التي أقام بها أبرام وأسرته، وتقاليدها، أو تلك المناطق التي رحل إليها بعد أن أمره الرب «انطلق من أرضك وبيت أبيك، إلى الأرض التي أريك». وتكيف أبرام وذووه، ما أمكنهم ذلك، مع أخلاق البلد الذي نزلوا فيه، ووفروا لمعيشتهم بالوسائل نفسها التي يستخدمها سكان المناطق التي هاجروا إليها مسالمين[1] كان إبراهيم مربي ماشية، يسوق هو وابن أخيه لوط، في ترحالهما، وحلولهما، قطعاناً من الأبقار والخراف. ولكن إبراهيم

١- كانوا مسالمين في بدء إقامتهم. - المترجم.

غادر أرض كنعان التي خصصها الرب له، إذ حلت بها المجاعة[1] وانطلق ميمماً وجهه شطر مصر.

جرى العرف، في بلاد الرافدين، الموطن الذي غادره أبرام، أن يطالب أصحاب المقام وكبار الكهنة، بالنساء الجميلات لخدماتهم الخاصة. وعلى هذا، فإن كل مقاومة، للحيلولة دون ذلك، كانت تذهب هباء. كان إبراهيم على علم بذلك. فخامره الشك أن تلك العادة تسري، أيضاً، على كافة البلاد ومن ضمنها مصر، فما أن اقترب وزوجه من تخومها، حتى خاطب إبراهيم زوجه العاقر قائلاً: «ساراي، أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فإذا رآك المصريون، قالوا: «هذه امرأته»، فيقتلوني ويبقونك على قيد الحياة. فقولي أنك أختي، حتى يَحْسُنُ إلي بسببك وتحيا نفسي بفضلك». وما ارتآه أبرام كان الصواب عينه، إذ رآها وأشاد بجمالها، لدى الفرعون، حراس الحدود المصريون وأمراء «الفرعون» معاً وبعد أن اقتيدت ساراي إلى بيت الفرعون، أحسن ملك المصريين وِفادةَ أبرام بسببها، وصار له «لزعمه بأنه أخوها»: «غنم وبقر وحمير وخدام وخادمات وحمائر وجمال».

ولو لم يضرب الرب فرعون وأهل بيته ضربات شديدة «بسبب ساراي امرأة أبرام»، لكان باستطاعة الزوج المتبصر الخدوم، الذي عرَّف بزوجه أختاً له، أن يستقر في أرض مصر عزيزاً رضي البال، غير أن الفرعون لم يشأ أن يدخل في خلاف مع قوة عليا تجلت له قدرتها وعظمتها، كما أنه توجه بالملامة إلى الزوج الذي أميط اللثام عن أكذوبته: «ماذا صنعتَ بي؟ لِمَ لم تُعلِمني إنها امرأتك؟ لِمَ قلت: هي أختي، حتى أخذتُها لتكون لي امرأة؟ والآن هذه امرأتك: خذها وامضِ» «وأمر فرعون قوماً فشيعوه هو وامرأته وكل ماله...» وكان أبرام غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب، عندما ترك مصر هو وامرأته ساراي ولوط وكل ما كان معه.

وقد تميزت هذه الفترة الزمنية من حياة أبرام المسالمة الهادئة، التي انفصل فيها أبرام، فيما بعد، عن لوط بسبب ما وقع من خصومات بين رعاة ماشيته ورعاة ماشية لوط، بخصيصة من خصائص عادات ذلك الزمان وتقاليده: هي تلك الدعوة التي وجهتها ساراي إلى زوجها: «هو ذا قد حبسني الرب عن الولادة، فادخل على خادمتي، لعل بيتي يُبنى منها». فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن ساراي، الزوجة المثالية، قد تبنت موقف نساء «بلاد الرافدين» المثاليات، حيث ولدت وترعرعت، فنصحت زوجها باتخاذ حظية لإنجاب البنين... إذ لا بد أن يكون للرجل أبناء وبخاصة الذكور منهم.

وامتثل أبرام لـ... صوت خادمة امرأته المصرية هاجر زوجاً له، فلما رأت هاجر أنها قد حملت، هانت سيدتها في عينيها، فقلت ساراي لأبرام: ظلمي عليك إني

٢- ويريدونها أرض يمن ويسر. - المترجم.

وضعت خادمتي في حضنك، فلما رأت أنها قد حملت هِنْتُ في عينيها. ليحكم الرب بيني وبينك». فقال أبرام لساراي: «هذه هي خادمتك في يدك، فاصنعي بها ما يَحْسُنُ في عينيك». إن ما حدث يتطابق وقانون حمورابي الذي سُنَّ، على الأرجح «في الوقت الذي غادر فيه أبرام مملكة بابل[1]» وولدت هاجر لأبرام ابناً، فسمى أبرام ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، الذي سيكون أباً لأثني عشر رئيساً، فقال الرب... «وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه. وها أنذا أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً، ويلد إثني عشر رئيساً» سيعيشون في مراعٍ وقرىً من خيام.

واستناداً إلى العهد القديم، فقد جرى العمل بشعيرة الختان بناء على تعليم منزل صريح وواضح، أما السنة التي يختن فيها الذكور فقد تغير ميقاتها، إذ لم يعمد إبراهيم إلى الختان لإقامة الدليل على النضج الجنسي أو الاحتفاء به، كما هو الحال في مصر الفرعونية، وإنما اعتمده ليَسِمَ به، منذ سن مبكرة، جميع الذكور، من أهل بيته والخارجين من صلبه.

بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل، ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، تراءى له الرب وقال له: «أنا الله القدير، فسر أمامي وكن كاملاً. سأجعل عهدي بيني وبينك وسأكثرك جداً جداً» فسقط أبرام على وجهه. وخاطبه الرب قائلاً: «ها أنا أجعل عهدي معك، فتصير أبَ عددٍ كبير من الأمم، وسأنميك جداً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبوياً، لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك.. وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، ولنسلك من بعد، كل أرض كنعان، ملكاً مؤبداً، وأكون لهم إلهاً». هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: «يختن[2] كل ذكر منكم. فتختنون في لحم قَلَفِكم، ويكون ذلك علامة بيني وبينكم، وابن ثمانية أيام يختن كل ذكر منكم من جيل إلى جيل، سواء أكان مولوداً في البيت أم مشترى بالفضة من كل غريب ليس من نسلك يختن المولود في بيتك والمشترى بفضتك، فيكون عهدي في أجسادكم عهداً أبوياً. وكل أَقْلَفٍ من الذكور لم يختن في لحم قُلْفَتِه تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي» و «بالختان تميز» جميع الذكور في بيت إبراهيم من جيرانهم.

وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما تراءى له الرب وأصدر عليه أمره: «ساراي امرأتك لا تسمها ساراي، بل سمها سارة. وأنا أباركها وأرزقك منها ابناً

١- قانون حمورابي كما نعلم لم ينته بوفاة مشرعه، بل امتد لقرون عدة لاحقة.. وعليه فليس، بالضرورة أن يكون هذا التشريع قد سن في الوقت الذي غادر فيه برام مدينة أور.. ومن المفيد أن نعلم أن أسفار موسى الخمسة في شكلها الحالي، وهي التي اعتمدها مؤلف هذا الكتاب، تعود على الأرجح إلى القرن السادس والخامس ق.م. - المترجم.

٢- الختان عادة مصرية أخذها اليهود من الفراعنة الذين استعبدوهم، ونحن نعلم ما لمصر الفرعونية من علو مقام في العالم القديم.. فلعل اليهود قد أخذوا بشعيرة الختان تيمناً بفراعنة عظام اسقاطاً لما أصابهم من مذلة ومهانة... - المترجم.

وأباركها فتصير أمماً..» فسقط إبراهيم على وجهه وضحك، وقال في قلبه: «ألابن مئة سنة يولد ولد. أم سارة، وهي ابنة تسعين سنة، تَلِدُ»؟.

ضحك إبراهيم لتشككه، غير أنه، مع ذلك، كان يؤمن، مدفوعاً بخشيته من الرب، بأن سارة ستلد له ابناً، لأن الرب صرح له قائلاً: «وستسميه اسحق، لأنني سأقيم عهدي الأبدي بيني وبينه وبين ذريته من بعده».

امتثل إبراهيم لأوامر الرب جميعها.. إلا أن سارة، التي وقفت عند باب الخيمة تتسمع، فوجئت بحديث إبراهيم مع رسل الرب الثلاثة الذين استقبلهم إبراهيم بالحفاوة والتكريم، إذ قال أحدهم: «سأعود إليك في مثل هذا الوقت، ويكون لسارة امرأتك ابن». وسارة التي «انقطع عنها ما يجري للنساء ضحكت في نفسها قائلة: «أبعد هرمي أعرف اللذة، وسيدي قد شاخ»؟ فقال الرب لإبراهيم: «ما بال سارة قد ضحكت قائلة: «أحقاً ألد وقد شخت؟ هل من أمر يُعْجِز الرب؟ في مثل هذا الوقت أعود إليك ويكون لسارة ابن» فأنكرت سارة قائلة: «لم أضحك، ذلك لأنها خافت».

وقضى الله، في السنة نفسها التي بارك فيها اقتران إبراهيم بسارة. أن يدمر مدينتي سدوم وعمورة، إذ علا الصياح والصراخ عليهما واشتد، وخطيئة من فيهما قد ثقلت جداً، فتقدم إبراهيم يتضرع للعفو عنهما: «أحقاً تهلك البار من الشرير؟ لعله يوجد خمسون باراً في المدينة، أحقاً تهلكها ولا تصفح عنها من أجل الخمسين باراً الذين فيها؟ حاشى لك أن تصنع مثل هذا: أن تميت البار مع الشرير، فيكون البار كالشرير، حاشى لك أديان الأرض كلها لا يدين بالعدل»؟ فقال الرب: «إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة، فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم» وظل عدد هؤلاء الأبرار ينقص إلى أن قال إبراهيم: «لربما وجد هناك عشرة» فقال لارب له: «لا أهلك المدينة من أجل العشرة» ومضى الرب عندما انتهى من الكلام مع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه.

كان يقيم في سدوم ابن أخي إبراهيم، لوط. هبط الملاكان في سدوم مساء، وكان لوط جالساً عند بابها. فلما رآهما، قام للقائهما وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: «سيديَّ مَيِّلا إلى بيت عبدِكُما وبِيْتَا واغسُلا أرجلكما، ثم تُبكِّران وتَمضِيان في سبيلكما». فقالا: «لا، في الساحة نبيت». فألح عليهما كثيراً، فمالا إليه ودخلا منزله. فصنع لهما مأدبة وخبز فطيراً، فأكلا. وقبل أن يضطجعا، إذا بأهل المدينة، أهل سدوم، قد أحاطوا بالمنزل، من الصبي إلى الشيخ، جميع القوم إلى آخرهم. فنادوا لوطاً وقالوا له: «أين الرجلان اللذان قدما إليك في هذه الليلة؟ أخرجهما لكي

نعرفهما[1]» فخرج إليهم لوط إلى المدخل وأغلق الباب وراءه وقال: «أسألكم ألا تفعلوا شراً يا أخوتي. ها أنذا لي ابنتان ما عرفتا: أخرجهما إليكم، فاصنعوا بهما ما حسن في أعينكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما دخلا تحت ظل سقفي».

كان واجب الضيافة، في سدوم، أرفع شأناً من عذرية الفتيات. ولكن لم يكن للوط، على الرغم من عرضه، ولا لضيفيه، أن يمنعوا شرور اللوطيين وعنفهم في سدوم، لو لم يضرب الضيفانُ المهاجمينَ، من صغيرهم إلى كبيرهم، بالعمى، فلم يقدروا أن يجدوا الباب. عندئذٍ نصح المُرسَلان من لدنه تعالى لوطاً بالرحيل عن سدوم هو وزوجه وبناته. ثم إن لوطاً أراد أن يصطحب معه أصهاره الذين سيتخذون بناته أزواجاً، لكنه بدا «كمازح في أعين أصهاره» ذلك لأنهم لم يصدّقوا أن المدينة سَتَهْلَكُ عقاباً لها على آثامها وذنوبها. فلما طلع الفجر، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وابنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. فلما أخرجاهم إلى خارج قالا: «انج بنفسك لا تلتفت إلى ورائك ولا تقف في السهل كله، وانج إلى الجبل لئلا تهلك». ويدلنا ذلك على أنه ينبغي للفارين، ألا يأسفوا على ما حل بهم من خسارة مادية، ولا على إقلاعهم عما في سدوم من عادات وتقاليد، كما ينبغي لهم: ألا يفكروا، البتة، بما خلفوه وراءهم.

وعندما أمطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السموات، وقلب «تلك المدن وكل السهل وجميع سكان المدن وبنات الأرض» التفت امرأة لوط إلى ورائها «فصارت نصب ملح» وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو ابنتاه معه، لأنه خاف أن يقيم في صوعر. فأقام في مغارة هو وابنتاه. فقالت الكبرى للصغرى: «إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسقِ أبانا خمراً ونضاجعه ونُقِم من أبينا نسلاً» فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد، قالت الكبرى للصغرى: «ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمراً هذه الليلة أيضا، وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً» فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فحملت ابنتا لوط من أبيهما».

١- عرف امرأته - اقترن بها وضاجعها: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت وولدت قاين (سفر التكوين، الفصل الرابع - المترجم).

وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بَنْعَمِّي، «وهو أبو بني عمون إلى اليوم» فلم يكن، والحال هذه، للموآبيين ولا لبني عمون، الإسرائيليين اعتباراً ما، إذ كانوا «أبناء فسق وفجور» - أولاد سفاح[1] -

ومن المحتم ألا تقوم لعادة تسليم الزوجة إلى الغير قائمة، كما فعل أبرام في مصر، فقد ذُكر أن إبراهيم، عندما حل في جِرار قادماً إليها من بلاد غريبة، قال في سارة امرأته: «هي أختي» فأرسل أبيملك ملك جرار، فأخذ سارة[2] ولم يكن أبيملك قد دنا منها إذ أتاه الرب في حلم الليل وقال له: «إنك ستموت بسبب المرأة التي أخذتها، فإنها تحت سلطان زوج لها» فسعى أبيملك، محاولاً، في الحلم، تبرئة ساحته: «أليس هو الذي قال لي: هي أختي، وهي أيضاً قالت: هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة كفي صنعت ذلك».

وصفح الرب عن أبيملك وإبراهيم كليهما. ثم إن سارة حملت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي وعد الله به، وسماه اسحق، وفي اليوم الثامن خَتَنَهُ «بحسب ما أمره الرب به». لم يروِ لنا العهد القديم أفعال إبراهيم وابن أخيه لوط لكي يدينهما، ويكشف لنا عن ضعفهما ووهنهما، إذ ترمي القصص الدينية إلى تعليم المؤمنين، صراحة، أن الله يستهجن ويقاصص بلا رحمة ذوي الأخلاق الشائنة: زنى المرأة المتزوجة، واللذات المثلية الشاذة، والعلاقات الجنسية بين الآباء وبناتهم.

وقد برأ الرب إبراهيم من خطاياه، ذلك لأن إبراهيم كان أبداً على أتم الاستعداد للامتثال، دونما تردد، لأوامر ربه، وإلى الإيمان بخشوع بما لا يمكن تصديقه، إذا شاء الرب، وعلمه ذلك، بل كان مستعداً لقتل، حتى ابنه اسحق[3] وحيده، الذي أحبه

١- جاء في حاشية من كتاب «كتب الشريعة الخمسة» أن لبني موآب وبني عمون تقليداً يمكنهم من الافتخار بمثل هذا الأصل. أن ابنتي لوط لا تظهران هنا في مظهر الفجور، لأن غايتهما الوحيدة هي بقاء النسل. وتفترض الآية، ٣١، أن يكون لوط وابنتاه الناجين الوحيدين من الكارثة. ولعل قصة سدوم، التي دمرت بسبب خطيئة سكانها، قصة عبرانية أردنية قديمة توازي رواية الطوفان. - المترجم.

٢- ترى كم كان عمر سارة عندما أخذها أبيملك؟! - المترجم.

١- في الأنشودة الجدلية «خوف ورعدة» تأليف الفيلسوف سرن كيركجورو ترجمة فؤاد كامل، ملحوظتان هامتان جاءتا في تذييل الدكتور فؤاد كامل للكتاب هما: «أن القرآن الكريم لم يحدد، صراحة، اسم الابن الذبيح ولكننا نستطيع أن نستخلص منه فيما يشبه اليقين أنه لم يكن اسحق بحال من الأحوال، وإلا لما ذكره بعد قصة الفداء مباشرة في الآية ١١٢ من سورة الصافات:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

كل الحب، ليقدمه قرباناً (محرقة) على أحد الجبال: ولما بنى إبراهيم هناك المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه وجعله على المذبح فوق الحطب ومد إبراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ابنه. ناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: «إبراهيم إبراهيم»! قال: «لبيك». قال: «لا تمد يدك إلى الصبي ولا تفعل به شيئاً، فإني الآن عرفت أنك متقٍ الله. فلم تمسك عني ابنك وحيدك».

رفع إبراهيم عينيه ونظر، فإذا بكبش واحد عالق بقرنيه في دغل، فعمد إبراهيم إلى الكبش وأخذه واصعده محرقة بدل ابنه، وعلى هذا فإننا ندرك خضوع إبراهيم غير المشروط. كما نلاحظ أيضاً أن الله لا يقبل بأن يضحي الآباء بأبنائهم، تلك العادة المسموح بها في القبائل التي كان إبراهيم يعيش في كنفها.

فقد أصبح من المحتم أن يحل محل التضحية البشرية، من الآن فصاعداً، كبش أو حمل.

وخاف إبراهيم وقد بلغ من العمر عتياً، أن يتخذ ابنه امرأة من بنات الكنعانيين الذين يقيم في وسطهم، فأرسل أقدم خدام بيته ليبحث لابنه عن خطيبة في بلاد الرافدين، عند ابن أخيه بتوئيل[1] الذي كانت له ابنه اسمها رفقة. وانتظر الخادم إلى أن تأكد له أن الفتاة كريمة محبة للضيف، إذ لم تقدم الماء له فتسقيه هو وحده فحسب، بل سارعت واستقت لجميع جماله أيضاً، فطلب إليها أن تكون زوج اسحق، ولكي يعقد خطبتهما، وضع لها حلقة أنف من ذهب وزنها نصف مثقال، وسوارين ليديها وزنهما عشرة مثاقيل ذهب. وبعد موافقة أبيها وأخيها لابان قالا للخادم: «أن الأمر صادر من عند الرب، فليس لنا أن نكلمك فيه بشر أو خير، هذه رفقة أمامك، خذها وامض فتكون

فهذه البشرى كانت تالية لقصة التضحية ولم تكن قبلها.

ونحن نعلم أن اسحق لم يكن وحيد أبيه إذ كان لإبراهيم ابن آخر من هاجر هو إسماعيل الذي حضر وفاة أبيه ودفنه.

أما عن المكان الذي دارت فيه أحداث هذه القصة، فهي مكة. والدليل يؤخذ هنا أيضاً من العهد القديم، ففي الآية العشرين من الإصحاح ٢١ من سفر التكوين أن ابن هاجر (وهو إسماعيل) «سكن في بريه فاران» وأخذت له أمه زوجة من «أرض مصر» وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة.

أما سبب ذكر اسحق في التوراة بدلاً من إسماعيل، على حين أن الدلائل جميعاً تشير إلى أن إسماعيل كان هو المقصود بالتضحية - فذلك لأن اليهود كانوا حريصين على أن يكون أبوهم الذي انحدرت منه سلالتهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حداثة سنه. - المترجم.

١- في رواية أخرى أن رفقة زوج اسحق هي، بنت ناحور، أخي إبراهيم. - المترجم.

امرأة لابن سيدك، كما قال الرب» فلما سمع خادم إبراهيم كلامهما، سجد للرب إلى الأرض، وأخرج حلي فضة وحلي ذهب وثياباً وأعطاها رفقة، وهدايا قدمها لأخيها وأمها. حسب ما كانت تقتضيه عادة أهل البلاد. ينبغي للرجل الطيب المنبت أن يتخذ زوجاً له، فتاة عذراء، من أسرة أحسن اختيارها، أو من أسرته هو، أن كان ذلك ممكنا.

«وأحب اسحق رفقة حينما قدمها له الخادم. فصارت له زوجة. وتعزى اسحق عن أمه».

إن لحق البكورية، الذي يعود إلى الابن الأول المولود من الزوجة الشرعية، أهمية بالغة. وهذا ما تشير إليه قصة يعقوب وعيسو، التوأمان اللذان ولدتهما رفقة لزوجها اسحق.

ومع ذلك فقد كان التوأمان من جبلتين متباينتين تمام التباين، على الرغم من أن أباً واحداً قد أنجبهما، وأما بعينها قد أخرجتهما من أحشائها، إذ صار عيسو صياداً فخرج إلى الريف والحقول، وصار يعقوب رجلاً بسيطاً محباً للاستقرار، فأقام بالخيام، وأحب اسحق عيسو لأنه كان يستطيب صيده، وأما رفقه فأحبت يعقوب.

وذات يوم، عندما رجع عيسو من جولات صيده، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، طلب إلى أخيه يعقوب أن يطعمه مما أعده من مرق أحمر، فقال له يعقوب: «بعني اليوم بكريتك» فقال عيسو: «ها أنذا صائر إلى الموت، فما لي والبكرية»؟ فقال يعقوب: «احلف لي اليوم» فحلف وباع بكريته ليعقوب. فأعطى يعقوب لعيسو خبزاً وطبيخاً من العدس، فأكل وشرب وقام ومضى، وهكذا استخف عيسو بالبكرية. إن هذا الملاحظة لتؤكد لنا أنه من الخطأ أن يتنازل المرء عن حق يعود إليه بالولادة، كما تطلعنا أيضاً على أنه لا ينبغي للصياد الصلب العود، من الآن فصاعداً، أن يفضل أخاه الراعي الحريص على أهل بيته.

كان يعقوب هو الأثير عند أمه. وفضلته كثيراً على عيسو، ثم أن يعقوب تزوج بفتاة من قبيلة أجنبية ساعدته على خداع أبيه ليفوز ببكرته وبحق البكرية، وذلك أن اسحق، لما شاخ، قال لعيسو: «ها أنذا قد شخت ولا أعلم يوم موتي. والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك، واخرج إلى الحقل وصد لي صيداً، واعدّ لي ألواناً طيبة كما أُحِب، وائتني به فآكل، لكي تباركك نفسي قبل أن أموت». فنصحت رفقة يعقوب بأن يأتيها بجوادين[1] من أفضل جياده لتعدهما لأسحق ألواناً طيبة من الطعام كما يحب: «فتأتي

١- في سفر التكوين تقول رفقة لابنها يعقوب: «اِذْهَبْ إِلَى الْغَنَمِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدْيَيْنِ جَيِّدَيْنِ مِنَ الْمِعْزَى». - المترجم.

بها أباك ويأكل، لكي يباركك قبل موته». وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي عندها في البيت فألبستها يعقوب، وكست يديه وملاسة عنقه بجلد المعز، وأعطت يعقوب ابنها ما صنعته من ألوان الطعام الطيبة والخبز.

تعذر على اسحق الشيخ أن يتعرف على ابنه يعقوب بعينيه الكليلتين إذ دخل عليه بثياب أخيه عيسو بعد أن كسا يديه بجلد المعز فبدتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، وقدم لأبيه الطعام. فقال اسحق ليعقوب: «تقدم حتى أجسك يا بني، لأعلم هل أنت ابني عيسو أم لا، فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه، فجسه وقال: «الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو». ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه. وقال: «تقدم قبلني يا بني» فتقدم وقبله، فاشتم رائحة ثيابه وباركه وقال: ها هي ذي رائحة ابني، كرائحة حقل قد باركه الرب. يعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ويكثر لك الحنطة والنبيذ، وتخدمك الشعوب وتسجد لك الأمم. سيداً تكون لأخوتك، ولك بنو أمك يسجدون، لاعنك ملعون ومباركك مبارك». ولما عاد عيسو من صيده وعلم أن أخاه قد خدعه صرخ وبكى واشتكى قائلاً: «ألأنَّه سمي يعقوب قد تعقبني مرتين: أخذ بكريتي، وها هو ذا الآن أخذ بركتي» ثم قال: «أما أبقيت لي بركة»؟

وبما أن للبركة الأبوية الممنوحة قيمة مقدسة لا تنقض ولا ترد، فإن اسحق لم يرجع عن كلامه، بل أجاب ابنه وقال: «ها أنذا قد جعلته سيداً لك». عندئذٍ رفع عيسو صوته وبكى. فأجابه اسحق أبوه وقال له: «بمعزل عن دسم الأرض يكون مسكنك، وعن طل السماء الذي من عل. بسيفك تعيش وأخاك تخدم، ويكون أنك، إذ قويت تكسر نيره من عنقك» وتحدد مصير عيسو الصياد بهذا القرار، فحقد على أخيه وتهدده بالقتل، إلا أن رفقه أخبرت يعقوب، ابنها الأصغر الأثير، ونصحته بالهرب إلى لابان أخيها في حاران فدعا اسحق يعقوب وباركه مرة ثانية وقال له: «لا تأخذ امرأة من بنات الكنعانيين». أما عيسو فقد تزوج، إضافة إلى ما ملك من النساء، بابنه إسماعيل، الحفيدة الصغرى لإبراهيم وهاجر.

وفي بلاد الرافدين، في بيت لابان خاله، استقبل يعقوب بالحفاوة والتكريم. وبعد انقضاء شهر من الزمان عرض لابان على يعقوب أجراً لقاء عمله. وأحب يعقوب راحيل ابنة لابان الصغرى، وكانت فتاة مليحة الوجه ممشوقة القامة، وتعهد بالعمل عند خاله سبع سنوات لتكون له. فكان عمله ثمناً لشرائها.

أما ليئة، ابنة لابان الكبرى، فقد كانت «قصيرة البصر» وفي الصباح، بعد وليمة الزفاف التي أقامها لابان عند انقضاء سنوات العمل السبع، ثمن شراء راحيل، لم يجد يعقوب في مضجعة راحيل التي أحبها وإنما وجد ليئة أختها الكبرى. فتوجه إلى خاله يعاتبه ويلومه: «ماذا صنعت بي؟ أليس أني براحيل خدمتك؟ فلم خدعتني»؟ فقال لابان: «لا يصنع في بلادنا أن تعطى الصغرى قبل الكبرى. أكمل أسبوع هذه. فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبع

سنوات أخرى». فصنع يعقوب كذلك وأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيل ابنته امرأة له. فدخل يعقوب على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من حبة لليئة. وعاد وخدم لابان سبع سنوات أخرى». وحملت ليئة دون أختها وولدت أربعة بنين. ولم رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب، غارت من أختها وقالت ليعقوب: «هب لي ولداً، وإلا فإني أموت». فغضب يعقوب على راحيل وقال: «ألعلي أنا مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن»؟ قالت: «هذه خادمتي بلهة: ادخل عليها فتلد على ركبتي ويبنى بيتي أنا أيضاً منها» فأعطته خادمتها بلهة امرأة، فدخل عليها يعقوب مستجيباً لطلبها. فحملت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. فقالت راحيل: «قد حكم الله لي واستجابني فرزقني ابناً».

وعندما حملت بلهة للمرة الثانية وولدت ليعقوب ابناً آخر، تهللت راحيل فرحاً وكِبراً وقالت: «قد صارعت أختي مُصارعات الله وغلبت» إلا أن ليئة التي «توقفت عن الولادة» قدمت لزوجها يعقوب خادمتها زلفة وأدى تنافس الأختين، وغيرتهما، وتوقهما إلى إنجاب البنين من يعقوب زوجهما إلى تكاثر نسل يعقوب الذي غمرته به امرأتاه وحظاياه. ولكن عندما فتح الله رحم راحيل ووهبها ابناً من لحمها ودمها وسمته يوسف، عزم يعقوب على راحيل بنسائه وبنيه، إذ خدم خاله بما فيه الكفاية. عند ذلك طلب يعقوب من لابان أن يعطيه أجره، فقد تجاوزت خدمته السنوات الأربع عشرة لتمتد وتبلغ عشرين سنة، وأذعن لابان بعد تردد وأعطى ابن أخيه، زوج ابنتيه، جميع الحملان والجداء وجميع التيوس والمعز المخططة والرقطاء والبلقاء والنمراء، التي يمكن أن يجدها بين قطيعه. وبلغ نصيب يعقوب من القطيع، بفضل حنكته وحيلته، حد أثار غيرة لابان وبنيه فتألبوا عليه وحقدوا. «ورأى يعقوب وجه لابان، فإذا به ليس معه كما كان أمس فما قبل». فأوحى الرب ليعقوب: «ارجع إلى أرض آبائك ومسقط رأسك، وأنا أكون معك» وساق يعقوب جميع ماشيته، وجميع الأموال التي اقتناها «وهرب، خادعاً لابان الآرامي ولم يخبره بفراره».

جدَّ لابان في أثرهم، لكنه تمالك نفسه وكظم غيظه ذلك أن الرب أتاه في الحلم وقال له: «إياك أن تكلم يعقوب بخير أو بشر». وشق على لابان أن يمتثل لأمر الرب، لا لأن يعقوب قد هرب خفية، ولا لأنه قد ساق ابنتيه كما يساق أسرى الحرب، ولا لأنه لم يمنحه فرصة تشييعه بابتهاج وإغانٍ ودفٍ وكناره، ولا لأنه لم يستطع أن يقبل أحفاده وابنتيه، فحسب، بل لأن لابان قد حسبه لصاً سرق «آلهته» أيضاً «فتلك جريمة لا تغتفر».

ولما كان يعقوب لا يعرف أن راحيل قد أخذت «التيرافيم» وهي أصنام المنزل الأبوي، دعا لابان إلى تفتيش كل ما لديه ليجد ضالته، لكنه لم يجد الأصنام في خيمة راحيل التي أخفتها في رحل الجمل وجلست فوقها.. وجسَّ لابان الخيمة كلها فلم يجد شيئاً «إذا قالت راحيل لأبيها: «لا يغضب سيدي إن كنت لا أستطيع أن أقوم أمامه فقد حدث لي ما يجري للنساء».

وهكذا احتفظت راحيل، بالقرب منها، بالرموز التي انتهكت حرمتها ونقلتها سراً إلى منزل زوجها ثم إن لابان طالب، أثناء توديعه لبناته، بحقوقه الأبوية، تمشياً مع عادات سكان الرافدين: «البنات بناتي والبنون بني والغنم غنمي، وكل ما تراه هو لي، فماذا تراني اليوم أفعل ببناتي وبالنبين الذين ولدتهم»؟ ومع ذلك فقد أخلى سبيل يعقوب وجميع أفراد أسرته وكل ما كسبه، في بلاد الرافدين من أموال وأنعام، وقطع مع يعقوب عهداً: فأخذ يعقوب حجراً وأقامه نصباً. وقال يعقوب لأخوته: «اجمعوا حجارة» فجمعوا حجارة وجعلوها كومة وأكلوا طعاماً فوق الكومة. وقال لابان: «هذه الكومة تكون شاهداً بيني وبينك اليوم».

وحط يعقوب رحاله قبالة مدينة شكيم في أرض كنعان، واشترى بمئة قسيطة[1] قطعة من الحقل حيث نصب خيمته، وأقام هناك مذبحاً ودعاه باسم إيل، إله إسرائيل.

أمل يعقوب أن يعيش في سلام، لكن شكيم بن حمور، رئيس البلد، رأى دينة، الفتاة التي ولدتها ليئة ليعقوب، فأخذها وضاجعها واغتصبها. أحب شكيم الفتاة وتعلقت نفسه بها فخاطب قلبها، ثم تحدث مع أبيه قائلاً له: «خذ لي هذه الفتية زوجة».

وتوسط حمور لابنه لدى يعقوب وأخوتها إذ سمع الجميع بالأمر وعرفوا أن دينة قد دنست. وقال: «أن شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم، فأعطوه إياها زوجة، وصاهرونا. وقال شكيم لأبيها وأخوتها: «أنال حظوة في عيونكم، وما تطلبونه مني أعطيه لكم. أكثروا عليّ المهر والعطية جداً، فأعطيكم كما تطلبون مني، وأعطوني الفتاة زوجة»، فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه وكلموهما بمكر لأن شكيم دنس دينة أختهم، وقالوا لهما: «لا نستطيع أن نصنع هذا: إن نعطي اختنا لرجل أقلف، لأنه عار عندنا. ولا نوافقكم على ذلك إلا إذا صرتم مثلنا بأن يُختن كل ذكر منكم، فنعطيكم بناتنا ونتخذ بناتكم ونقيم عندكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا ولم تُختنوا، نأخذ ابنتنا ونمضي».

١- في توراة - دار المقدس - مائة نعجة. - المترجم.

وحسن كلام يعقوب وأبنائه في عيني حمور وابنه شكيم ووافقا على طلبهم، واقنعا جميع رجال المدينة معهما «واختتن كل ذكر منهم، كل الخارجين من باب المدينة والداخلين إليها». ولكن، ما أن حل اليوم الثالث، وآلام المختتنين على أشدها، جاء ابنا يعقوب، شمعون ولاوي، أخو دينة، ودخلا المدينة آمنين، وقد امتشق كل واحد منهما سيفه، فقتلا كل ذكر، وحمور وشكيم ابنه قتلاهما بحد السيف وأخذا دينه من بيت شكيم وخرجا. ثم دخل يعقوب على القتلى وسلبوا المدينة بسبب تدنيس أختهم... «وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل. وسبوا كل ثروتهم وجميع أطفالهم ونسائهم وسلبوا كل ما في البيوت».

فقال يعقوب لشمعون ولاوي: «قد جلبتما الشقاء علي وسودتما وجهي عند أهل البلد من كنعانيين وفرزيين، وأنا نفر معدود، فيجتمعون عي . ويضربوني فأهلك أنا وبيتي».

أيجهل أبناء يعقوب يا ترى ما هو الحق أو الباطل في عيني الرب؟ أم أنهم كذبوا وقتلوا ونهبوا لأن آلهة غريبة تلك التي جلبتها راحيل معها، قد حملتهم على ارتكاب جرائمهم تلك ودفعتهم إليهاً دفعاً[1]؟ وعلى كل حال فإن يعقوب قد أمر أبناءه بالتخلص من تلك الآلهة الغريبة المقيمة بينهم وفرض عليهم أن يطهروا ثيابهم ويبدلوها. وغادر المدينة والأرض شكيم هو وجميع أهله وقومه. وبينا هم في الطريق مَخَضَت[2] راحيل وعسرت ولادتها، فلما عسرت ولادتها قالت لها القابلة: «لا تخافي فإن هذا ابن الملك». وكان قبل أن تفيض نفسها، لأنها ماتت، قد سمته «بن أوني»[3] وأما أبوه فسماه بنيامين[4].

ولم يكن يعقوب سعيداً، كل السعادة، بأبنائه الاثني عشر، ذلك أن ابنه رأوبين، ضاجع سريَّة أبيه بلهة، وعلم يعقوب بذلك، فلعن، وهو على فراش الموت، ابنه رأوبين: «رأوبين، أنت بكري، قوتي وأول رجولتي. فاضل في الشموخ، فاضل في العز، فزت كالماء: لن تفضل لأنك علوت مضجع أبيك، حينئذٍ دنَّستَ فراشي علّي».

١- يتابع المؤلف تبريراته الساذجة للغش والخداع والسلوك غير الأخلاقي لأبطال عصر الآباء في سفر التكوين. - المحرر.

٢- مخضت الحامل: أخذها وجع الولادة والطلق واقتربت ولادتها.

٣- بن أوني: ابن ألمي. بنيمين: ابن اليمين= ابن اليمن. - المترجم.

٤- وأصبح اسمه إسرائيل إذ تراءى له الرب، بعدما رجع من فدان أرام، فباركه وقال له: «واسمك يعقوب، لن تسمى بعد اليوم يعقوب، بل إسرائيل يكون اسمك» كما سمي اليهود جميعاً باسم (إسرائيل). - المترجم.

وقد رسمت هذه اللعنة وسَنَّت قانون المستقبل الذي يمنع «اختلاط العلاقات الجنسية» في الأسرة الواحدة.

كما تسبب له بنوه الآخرون، بالألم والحزن، ذلك أن يعقوب، بعد وفاة أبيه اسحق الذي فاضت روحه وانضم إلى أجداده شيخاً قد شبع من الحياة، وبعد أن أقام في أرض الكنعانيين، أحب يوسف، ابن راحيل البكر، على جميع بنيه، الذين ابغضوا يوسف وحسدوه، إذ صنع له أبوه قميصاً موشى، فأخذتهم الغيرة منه، إذ كان يرى أحلاماً يروق له أن يقصها عليهم: «فحلمه الأول رأى أنه وإخوته يحزمون حزماً في الحقل، فإذا بحزمته تقف وتنتصب فتحيط بها حزم إخوته وتسجد لحزمته» وفي حلمه الثاني: رأى كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، فهل هذا يعني أن أباه وأمه وإخوته جميعاً سيسجدون له إلى الأرض؟ وتآمر الأخوة على التخلص منه، لكنهم لم يقرروا قتله. فباعوه إلى التجار بعشرين من الفضة، وأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الدم وبعثوا بالقميص الموشى وأوصلوه إلى أبيهم وقالوا: «وجدنا هذا انظر: أقميص ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقال: هو قميص ابني. وحشٌ ضارٍ أكله. افترس يوسف افتراساً» ومزق يعقوب ثيابه وشدَّ مِسْحاً على حقويه وحزِن على ابنه أياماً كثيرة. كما أن يهوذا، الابن الرابع ليعقوب من ليئة، قد تسبب لأبيه يعقوب بالكثير من الآلام أيضاً. وكان في ذلك الزمان أن يهوذا رأى بنت رجل كنعاني اسمه شوع، فتزوجها ودخل عليها. فحملت وولدت له ابناً فسماه عيراً، ثم حملت أيضاً وولدت ابناً فسمته أونان: «واتخذ يهوذا زوجة لغير بكره اسمها تامار. وكان عير، بكر يهوذا، شريراً في عيني الرب فأماته الرب. فقال يهوذا لأونان: «ادخل على امرأة أخيك وقم بواجب الصهر وأقم نسلاً لأخيك» وعلم أونان أن النسل لا يكون له، فكان إذا دخل على امرأة أخيه، استمنى على الأرض، لئلا يجعل نسلاً لأخيه».

وقبح ما فعله أونان في عيني الرب، فأماته أيضاً. وكان، هذا الذي حدث، عبرة لذرية إبراهيم، فمن حينه، عد تعطيل العملية الجنسية (أن يمنع الزوج نطفه من بلوغ غايتها الطبيعية المنشودة) جريمة ضد الطبيعة. وقد أطلق على السعي الفردي وراء اللذة الجنسية الذاتية، هتك حرمة الذات، اسم أونانا، وعدت الأونانية (ONANISME) من الآن فصاعداً، جريمة، بل عملية تلحق الضرر بالصحة وبالفتية الذين يجنون على أنفسهم بأنفسهم، فهم يخشون أن يتلفوا صحتهم، ويفقدوا رجولتهم، ويصابوا بالأمراض التناسلية، فرأوا فيها عاراً مستفحلاً، حتى لو مارسوها سراً. وترمي قصص العهد القديم وأحداثه إلى إثارة مشاعر القلق والإثم

في نساء الشعب ورجاله إذ تسرد علينا عادات ابراهيم وذراريه المباشرين، والمخالفات الأخلاقية التي ارتكبوها.

يفيد تاريخ الآباء هذا أن يكون استهلالاً لتدخل موسى في مصير بني إسرائيل تدخلاً حاسماً. وإسرائيل هو الاسم الذي أطلقه العهد القديم على ذرية يعقوب (الذي دعاه الرب إسرائيل). وفي مصر حظي يوسف[1] الذي باعه إخوته، بالحفاوة والتكريم: فاحتل أعلى المراتب، وانتهى به المطاف إلى دعوة جميع أفراد أسرته للإقامة معه في مصر.. ولكن بعد أن تجاوز محنته التي أوقعتها به زوجة فوطيفار: (وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عيناها إلى يوسف وقالت ضاجعني، فأبى، وقال: «هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت، وجميع ما هو له قد جعله في يدي، وليس في هذا البيت شيء فوق يدي، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك زوجته.

فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطئ إلى الله؟ وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها. فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله. فأمسكت بثوبه قائلة ضاجعني فترك رداءه بيدها وفر هارباً إلى خارج. فلما رأت أنه قد ترك رداءه بيدها وهرب خارجاً، صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا. أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عال. فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجاني وفر هارباً إلى خارج. فلما سمع مولاه كلام امرأته استشاط غضباً وأودعه السجن». (سفر التكوين - المترجم).

١- كان لقصة يوسف مع امرأة عزيز مصر فوطيفار (قطفير) أعمق الأثر في الأدب المسرحي والقصصي والشعري، وفي الموسيقا والتصوير، وقد استمد الأدباء المسلمون مادتهم من أصول إسلامية ومن سورة يوسف في القرآن الكريم، ومن تفسير الطبري، ومن المادة القصصية ذات الأصل الإسرائيلي، وجعلوا منها قصة من قصص الحب الصوفي، تختلط فيها العاطفة الإنسانية والعظة الدينية والمثالية الروحية. من الكتاب المسلمين نذكر: الفردوسي والجامي وحمدي وابن كمال باشا. ومن كتاب الغرب الخوري جينيه والكساندر دوفال وباور لورميان وتوماس مان. ومن الموسيقيين: هندا وبيهول روزنبرغ. لكن يجب ألا يغيب عن بالنا ما لهذه لقصة من قرابة مع تراث المنطقة وبخاصة مع قصة انوبو وبيتيو الفرعونية. وهي قصة أخوين صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة في مزرعة لهما، حتى هامت زوجة أنوبو بحب بيتيو الذي ردها عن نفسه فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً.
ولصديقنا الشاعر فايز خضور في الجزء الأول من ديوانه ص ١٦٧ قصيدة تحت عنوان: «زليخة بالملح ترسم عينيها» إنما لزليخة هنا حضوراً معاصراً أثرى وأعمق. وللصديق فراس السواح. في كتابه لغز عشتار، تحليل عميق يرجع بقصة يوسف إلى أصولها ويكشف النقاب عن أبعادها ومغزاها. انظر الصفحة ٣٤٠ وما بعدها من كتابه: لغز عشتار - المترجم.

وهكذا تنتهي هذه التوطئة التي عرضت علينا، بدقة متناهية موحية، الخطا التي سارت عليها، في طريق الرب، تلك العائلة التي اغتربت عن موطنها الأصلي[1] وعلى العكس من ذلك، فإن الأربعمائة والثلاثين سنة القادمة التي سيعيشها «بنو إسرائيل» في مصر، لم يصفها لنا العهد القديم إلا لماماً وبجمل مقتضبة.

وتلخص هذه الرواية الموجزة أربعة قرون حرر موسى في نهائيتها، الشعب من عبوديته، ومنح الرجال والنساء، الذين رزحوا تحت وطأة وكلاء التسخير ومنذ الشهر لثالث بعد الخروج، قانوناً، بلغ في كماله حداً جعله، على الرغم من تعاقب العصور، صالحاً حتى الآن، وترك أثاره عميقاً في أخلاق السواد الأعظم من البشرية[2].

واجتاز بنو إسرائيل، وهم يتضورون جوعاً، البحر الأحمر سيراً على الأقدام، إذ مد موسى يده وجعل الرب له ولشعبه البحر جافاً، ومن خلفهم فرعون وجيشه يَجِدَّان في إثرهم ويسعيان لقتلهم.

واجتاز المشاة الجياع البحر الأحمر بعد أن جفت مياهه بمشيئة الرب، وبمشيئته ارتدت أمواجه على الفرعون ومن كان معه، فأغرقهم جميعاً، ثم ساروا في الصحراء وشربوا من ماء الصخرة التي ضربها موسى بعصاه فانبجست مياهها وتدفقت. كانوا نفراً من الهاربين، لا حول لهم ولا قوة ولا يملكون شروى نقير، إذ كانوا رجالاً ونساء خدم مصر وعبيدها، فلم يكن لهم، في خروجهم، من طعام إلا المَنَّ الذي أنزله الله عليهم من السماء، ولا يملكون من الثياب إلا تلك التي تلف أجسادهم، كانوا يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

فإلى هذه الزمرة المستضعفة، التي كانت تحلم، أثناء مصابها ومحنتها، بلحوم مصر، وترى في مسيرتها التي لا بد من أن تقود أفرادها إلى الأرض الموعودة،

١- لا يمكن أن نسلم بصحة كل ما جاء في التوراة التي أملت سطورها عواطف اليهود الأسرى، ونحن وأن قبلنا، جدلاً، بذلك، فإن يهود اليوم لا يمتون بصلة إلى يهود الأمس - المترجم.

٢- نوافق المؤلف على ذلك إذا كان يعني قانون السلب والنهب واغتصاب أراضي الغير بالقوة، وهو القانون الأخلاقي الذي وجه دوماً سلوك اليهود - المحرر.

طريقاً لا نهاية لها، إلى هذه الجماعة سن موسى الوصايا العشر وما نتج عنها من شرائع عملية.

واكتنفت «الشريعة» جميع مراحل الحياة الإنسانية، وجميع ما يمكن للإنسان أن يختاره منها من إمكانات واحتمالات، وفرض موسى، بدقة وعناية، سلوك الإنسان القويم في كافة أفعاله الأساسية، منذ ولادته إلى حين وفاته. فكانت كل مخالفة للوصايا العشر خطيئة تستوجب العقاب، وإثماً بحق الرب الذي تراءى لموسى فنطق بلسانه، حتى أولئك الذين يتشككون بعقاب الرب وقصاصه. وأولئك الذين عميت أبصارهم فاستخفوا بها وازدروها، قد علمتهم الشريعة أن حياتهم ترتبط، برباط لا ينفصم، بحياة نظرائهم من بني البشر. وقد تحتم على كل من ينتمي إلى بني إسرائيل أن يُخضِع نفسه وسلوكه ورغباته وغرائزه إلى الشريعة المشتركة. إن أساس الشريعة الراسخ هو وجود الله فوق الناس أجمعين. (أنه الله الواحد الأحد، والكلي الوجود، والقدير المقتدر، وأصل كل حياة، والذي لا شريك له)[1] أن كل من يدنس اسمه مآله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً، وأن يلتزموا بكتمانه. وعليهم، حتى في صلواتهم، أن يبدلوا اسمه يهوه، ليحل محله أدوناي[2] ربي، وينبغي للمؤمن أن يحترم السبت، يوم الراحة الأسبوعية. وقد قيل: «اليوم السابع سبت للرب إلهك، فلا تصنع فيه عملاً أنت وابنك وابنتك وخادمك وخادمتك وثورك وحمارك وجميع بهائمك ونزيلك الذي نزل في داخل مدنك لكي يستريح خادمك وخادمتك مثلك».

وقد ذكر النص التوراتي الذي سجل هذا العرف، جميع أفراد الأسرة ما خلا الزوجة: ولا يمكن أن يكون سبب ذلك مجرد إهمال أو نسيان، لأن الزوجة في حياتها

١- يضرب المؤلف هنا بعرض الحائط كل الدراسات التوراتية التي تؤكد الإسرائيليين لم يتوصلوا إلى فكرة التوحيد إلا تدريجياً وأن هذه الفكرة لم تتوصل إلى أبوة الله لبشرية جمعاء إلا بعد تعليم السيد المسيح - المحرر.

٢- جاء في كتاب ادونيس أو تموز لمؤلفه جيمس فريز، ترجمة إبراهيم جبراً: أن بعض ملوك أورشليم الكنعانيين القدماء لعبوا دور أدونيس في أثناء حياتهم. لذا أن كان ملوك أورشليم الكهان في القدم يلعبون دور أدونيس على استمرار فلا عجب إذا رأينا نساء أورشليم فيما بعد يبكين على تموز، أي على أدونيس، في باب الهيكل الشمالي.. فكان الملك العبراني يدعى في أثناء حياته «أدوني هاميليخ» أي: «سيدي أوربي الملك» وينوحون عليه بعد موته صارخين «هوى آحي هوى ادون» أي: «وأخواه وأرباه» ولا نشك في أن عبارات الأسى هذه على موت ملك من ملوك اليهود هي العبارات نفسها التي كانت ترددها نساء أورشليم النائحات في مدخل الهيكل الشمالي على موت «تموز» أدونيس - المترجم.

اليومية لم تكن تتمتع بحقوق محددة إلا في حالات استثنائية فالمرأة بزواجها تصبح ملكاً للرجل.

وقد رأى شراح النصوص المقدسة في هذا الحط من قدر المرأة ومنزلتها، الذي أدى إلا رقها واستعبادها، ليس فقط، محصلة لامتياز الأب غير المحدود، بل هو تعبير أيضاً عن خشية الرجال ومهابتهم من نزف دم النساء الدوري، والمثير للريب «لنجاسته». فالزواج كان للرجال ضرورة لا بد منها لكي يخضعوا النساء إلى سلطانهم، ويشبعوا، بفضلهن، حاجاتهم الجنسية (وينجبوا البنين).

لكن الدم الذي تفقده المرأة في كل شهر، لم يجعلها في نظر الرجال دنسة فحسب، بل و «كافرة» أيضاً. ألم تحرم الشريعة تناول دم الحيوان الذبيحة.؟ «لأن الدم هو نفس كل جسد.. وأي رجل من بيت إسرائيل ومن النزلاء المقيمين فيما بينهم أكل دماً، أنقلب على آكل الدم وأفصله من وسط شعبه. لأن نفس الجسد هي في الدم».

في البدء كانت عقوبة العلاقات الجنسية أثناء فترة الطمث الموت.. وفي وقت لاحق نقرأ: «وأية امرأة كان بها سيلان، أي سيلان دم من جسدها، تبقى سبعة أيام في نجاسة طمثها. وكل من لمسها يكون نجساً حتى المساء. وكل من مس مضجعها يغسل ثيابه ويستحم في الماء ويكون نجساً حتى المساء. وإن ضاجعها رجل فصارت عليه نجاسة طمثها، يكون نجساً سبعة أيام، وكل مضجع يضطجع عليه يكون نجساً». وثمة تعاليم مماثلة تتعلق بالمرأة النفساء، وتتمايز تلك التعاليم تبعاً لجنس المولود: «وخاطب الرب موسى قائلاً: «كل امرأة حبلت فولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كأيام طمثها تكون أيام نجاستها، وفي اليوم الثامن تختن قلفة المولود، وثلاثة وثلاثين يوماً تظل في تطهير دمها. لا تمس شيئاً من الأقداس ولا تدخل المقدس، حتى تتم أيام طهرها. فإن ولدت أنثى، تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها، وستة وستين يوماً تظل في تطهير دمها[1]». ثم أن تشريع موسى لم يتطرق إلى ممارسات الرجال الجنسية قبل الزواج، بيد أن قانوناً أخلاقياً صارماً كان يفرض على الفتيات صيانة بكارتهن إلى ليلة زفافهن، فمن أجل حماية الأزواج والآباء الذين يخشون حرمانهم من مهر بناتهن، تضمَّن القانون محرمات صارمة تنزل بكل من ينتهك عذرية الفتاة».

دون أن تجني النسوة من ذلك فائدة تذكر: «إذا صادف رجل فتاة عذراء لم تخطب، فأمسكها وضاجعها فوجدا معاً، فليعط ذلك الرجل المضاجع لها لأبي الفتاة

١- تفريق مبين بين الجنسين رسم للأنثى مستقبلاً ما زالت تشكو منه وتعاني حتى الآن، لما ترك من آثار سلبية عميقة في وجدان رجال الدين والفكر والفلسفة والآداب. - المترجم.

خمسين من الفضة وتكون له امرأة، لأنه أذلها، ولا يحل له أن يطلقها كل أيامه[1] وعلى هذا فإن الفتاة التي «أمسك بها الرجل، ثم اغتصبها»، يكون قد حكم عليها بتكريس جميع أيام حياتها لمغتصبها، وأن تنام معه كما شاء له الهوى، وأن تتحمل، حتى آخر يوم من أيام حياتها، استياء يكنه، بلا ريب، ذاك الذي أُكْرِه على دفع خمسين من الفضة إلى حميه الممتهن. والحال أفضل قليلاً إن كانت الفتاة العذراء «مخطوبة» إلى أحد الرجال فاغتصبها رجل آخر: «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فصادفها رجل في المدينة فضاجعها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا. أما الفتاة، فلأنها لم تصرخ وهي في المدينة وأما الرجل، فلأنه اغتصب امرأة قريبه، فاقلع الشر من وسط. فإن صادف الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل، فأمسكها وضاجعها، فليمت ذلك الرجل المضاجع لها وحده. وأما الفتاة فلا تصنع بها شيئاً، إذ ليس عليها خطيئة تستوجب الموت، فإنما هذا الأمر أمر رجل وثب على قريبه فقتله. ذلك بأنه صادفها في الحقل، فصرخت الفتاة المخطوبة، فلم يكن من يخلصها».

وعلى كل امرأة انتهكت حرمة الزواج أن تدفع من حياتها ثمن خطيئتها، ولا يعاقب الرجل العقاب نفسه إلا إذا ألحق، من جراء عمله هذا، الضرر بحق ملكية رجل آخر: «إن ارتكب الرجل فاحشة وزنى بامرأة قريبه، موتاً يموت الرجل والمرأة كلاهما». ولكن للرجل الحق في ممارسة العلاقات الجنسية مع النساء والفتيات الغريبات اللائي لا ينتمين إلى قومه، ولا يشكلن قسماً من بني إسرائيل[2].

يسهل على الرجل الانفصال عن امرأته، ولكن، لا يحق له، البتة، أن يتزوج بها مرة ثانية.

وثمة قوانين صارمة إلى أقصى الحدود حرمت «كشف العورة» ويعد كل كشف العودة، يستثير في الإنسان أحاسيسه الجنسية المحرمة، إغواءً خطراً قادراً على تضليله وتحريضه على الفسق والفجور.

كما تعرضت الشريعة لجميع الاحتمالات التي يمكن تخيلها، فذكرتها ونوهت بها صراحة: «... عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف. إنها أمك، فلا تكشف عورتها. وعورة زوجة أبيك لا تكشف، فإنها عورة أبيك. وعورة أختك، ابنة أبيك كانت أو ابنة أمك، مولودة في البيت كانت أو في خارجه، لا تكشف. وعورة بنت ابنك أو بنت ابنتك لا تكشف، فإنها عورتك. وعورة بنت زوجة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف،

١- جاء في سفر الخروج، الفصل ٢٢، الآية ١٥: «أن أغرى رجل بكراً لم تخطب فضاجعها، فليجعل لها مهراً فتكون زوجة له. فإن أبى أبوها أن يزوجها، فليزن له من الفضة مثل مهر الأبكار - المترجم.

٢- في الواقع أن القوانين الأخلاقية السامية التي أشار إليها المؤلف منذ قليل، هي دوماً قواعد للتعامل بين بني إسرائيل أنفسهم. أما عندما يتعلق الأمر بغيرهم فقد أجاز لهم التوراة كل أنواع السلوك غير الأخلاقي. - المحرر.

أنها أختك، فلا تكشف عورتها. وعورة أخت أبيك لا تكشف، فإنها ذات قرابة لأبيك، وعورة أخت أمك لا تكشف، فإنها ذات قرابة لأمك. وعورة عمك لا تكشف وإلى امرأته لا تقترب، فإنها عمتك.. وامرأة مع أختها لا تتخذ لتكون ضرتها فتكشف عورتها معها وهي حية» هذه المحرمات تهدف إلى تدارك الإغواء وتجنب الفاحشة، فهي تحول دون ارتكاب أفعال بمقدورها استثارة الرغبة في انتهاك المحارم وغشيانها.

أن في اتخاذ الرجل لامرأة وأمها زوجتين له انتهاكاً لحرمة الأخلاق: «وكل رجل اتخذ امرأة وأمها، فتلك فاحشة، فليحرق هو وهي بالنار، فلا تكن فاحشة في وسطكم». وإن «كل رجل جامع بهيمة فليقتل قتلاً، واقتلوا البهيمة أيضاً». «وكل امرأة تقدمت إلى بهيمة لتفسدها، فاقتل المرأة والبهيمة: إنهما تقتلان قتلاً، فدمهما عليهما». «وكل رجل ضاجع ذكراً مضاجعة النساء، فقد صنعا كلاهما قبيحة فليقتلا: دمهما عليهما». كما منعت الشريعة أيضاً، تنكر الرجل بزي امرأة، والمرأة بزي رجل، بوصفه فاحشة، فعلى الرجل والمرأة معاً تجنب مثل هذه البلبلة بين الجنسين، إذ ينبغي للرجل أن يظهر بمظهر الرجل، وعلى المرأة أن تظهر بمظهر المرأة.

وقد حافظ الزواج على مكانته بوصفه أساس الأسرة وعمادها، على الرغم من الاحتقار والامتهان الذي حل بالمرأة، إذ كان باستطاعة أبيها أن يبيعها بيع الإماء قبل بلوغها الحلم، وما أن تتزوج حتى تصبح ملك زوجها الذي اقتناها من أبيها أو من أكبر أخوتها. كانت العزوبة خطيئة، وكان على الكهنة إذا ما بلغ واحدهم العشرين من عمره، أن يتزوجوا امتثالاً لما تقتضيه الشريعة، نظراً لأنه لا بد للرجل البالغ من أن يروي غريزته الجنسية كيلا يغوى ويذل فيقترف الخطيئة. أما الزوجات فقد جردتهن الشريعة من الحقوق كافة ما خلا ما استوثقنه، إذا ما أصبحن أمهات، من كبير اعتبار وسط الشعب. عند ذلك ينعمن بحماية الأسرة التي يرتفع مقامها وتقوى مكانتها بما ينجبن من خلف وبنين: «من يجد المرأة الفاضلة؟ إن قيمتها فوق اللآليء. قلب رجلها يثق بها فلا يحتاج إلى غنيمة. تأتيه بالخير دون الشر جميع أيام حياتها. تلتمس صوفاً وكتاناً وتعمل بحذق كفيها. فتكون كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد. تقوم في الليل وتعطي لبيتها أكلاً ولجواريها ما يكفيهن. تتأمل حقلاً فتأخذه وبثمر كفيها تغرس كرماً. تُنطق حقوبها بالقوة وتشدد ذراعيها. تذوق ما ألذ تجارتها فلا ينطفئ في الليل سراجها. تلقي يديها على المكعب وأناملها تمسك المغزل. تبسط كفيها إلى البائس وتمد يديها إلى المسكين. لا تخشى على بيتها من الثلج لأن أهل بيتها جميعهم لابسون الحلل. تصنع لنفسها أغطية موشاة ولباسها البز والأرجوان. رجلها معروف في الأبواب حيث يجلس بين الشيوخ. تصنع أقمصة وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعاني. لباسها العز والبهاء وهي تفرح في اليوم الأخير. تفتح فاها بالحكمة وفي لسانها سُنَّة الرأفة. تلاحظ طرق بيتها ولا تأكل خبز الكسل. يقوم بنوها فيغبطونها ورجلها فيمدحها. إن بنات كثيرات قد أنشأن لهن فضلاً أما أنت ففقت عليهن جميعاً.

النعمة غرور والجمال باطل، والمرأة المتَّقية للرب هي التي تُمدح، اعطوها من ثمر يديها، ولتمدحها في الأبواب أعمالها». (الإصحاح الأخير من الأمثال - المترجم).

ويعد منع الحمل انتهاك صارخ لحرمة الزواج، وإضرار كبير يلحق بملكية الرجل، وتحويل منحرف يبدد نطفه، ودنس تبلغ رائحته الخبيثة السماء، ويستنزل من العقاب ما ينزل بالزاني. وقد خطر على المرأة المتزوجة بشدة كل انحراف جنسي، كما تحتم أن تقتصر غاية علاقات النساء الجنسية مع أزواجهن على الإخصاب والإنجاب وليس على بعض المتع الشهوانية. وتعد المرأة زوجاً مثالية إن اقتصر اهتمامها، كلياً، على زوجها وبيتها وأحاطتهما بعنايتها. جاء في سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح السادس والعشرون، ما يلي «رجل المرأة الصالحة مغبوط، وعدد أيامه مضاعف. المرأة الفاضلة تسر رجلها وتجعله يقضي سنيه بالسلام. المرأة الصالحة نصيب صالح تمنح حظاً لمن يتقي الرب. فيكون قلبه جذلاً ووجهه بهجاً كل حين، غنياً كان أم فقيراً». ثم نقرأ في إصحاح آخر: «لطف المرأة ينعم رجلها. وأدبها يسمِّن عظامه. المرأة المحبة للصمت عطية من الرب، والنفس المتأدبة لا يستبدل بها. المرأة الحيية نعمة على نعمة. والنفس العفيفة لا قيمة توازنها. الشمس تشرق في عُلا الرب وجمال المرأة الصالحة في عالم بيتها. السراج يضيء على المنارة المقدسة وحسن الوجه على القامة الرزينة. العَمَد من الذهب تقوم على قواعد من الفضة، والساقان الجميلتان على أخمصي ذات الوقار، الأسس تَثْبُتُ على الصخر إلى الأبد، ووصايا الرب في قلب المرأة الطاهرة».

ولكن حتى هذه المرأة المثالية، الجديرة بثناء زوجها وتكريمه، ليس لها أن تستوثق من حبه وإخلاصه، إذ حق له أن يمتلك العديد من النساء، وحق عليها، إن تُوفي عنها، أن تستقبل بذار (نطف) أخيه، أو أقرب أقربائه الذكور إن لم يكن للميت أخ: أو ليست المرأة مخلوق للولادة فحسب؟ كما حق للزوج الذي قام بما عليه من واجبات حيال الإنسال وتخليد جنسه، أن ينعم بحريته في اللهو مع نساء أخريات. ولكن، والحق يقال، إن هؤلاء النسوة الأخريات «مخلوقات ضالة» و «بغايا» وقد اتخذت العديد من الإجراءات لمنع «النساء الفاحشات» من الإقامة بالقرب من المدن والقرى.

ومع ذلك، فإن الرجل، يطغى ويبغى وينتهك ناموس الرب، إذا ما استسلم إلى الفسق والفجور في الجوار، فذهب به الحال إلى اقتراف الفاحشة مع نساء عابدات للأوثان، فيكون بذلك قد اقترف أثماً لا يثقل ضميره فحسب، بل ينمي في نفسه الخوف والرهبة أيضاً: فإن ذاعت خطيئته وانتشرت، طاله «مجلس الأقدمين»، الذي يشكل الكهنة فريقاً من أعضائه، فيطالبه بعرض أفعاله ليدفع من نفسه ثمن كفارتها؟ لقد شوه سمعته ولن يسلم من الأقاويل وأصبح، من الآن فصاعداً، أمراً مشبوهاً ومثيراً للرعب، حتى وإن كانت طبيعة ما اقترف من جرم ومخالفات لا تدخل في عداد ما سنّه الشريعة من عقاب وقصاص. أما إذا تكرر انحرافه فزاد تيهاً وضلالاً، فقد التحف بالعار وحلت عليه اللعنة، ثم إنه

قد أساء إلى عائلته وعرَّض وحدتها وتماسها للخطر، تلك العائلة التي يتحتم عليه رعايتها والحفاظ عليها أياً كان الثمن، ذلك لأن في هذه الوحدة وفي هذا التماسك رمزاً لتضامن أسباط[1] إسرائيل، أحفاد يعقوب وذرية أبنائه الإثني عشر.

كان بنو إسرائيل على يقين لا يرد، بحقيقة قوانينهم الأخلاقية وصحتها. وتشهد على ذلك نصوص العهد القديم التي تتعرض لجميع ما عاناه بنو إسرائيل من محن وبلايا[2] ولكل أشكال الغزو والسبي التي حلت بهم عقاباً لهم من عند ربهم لما اقترفوه في حياتهم من آثام وذنوب. لقد أثموا، وهذا ما يدلنا على أنهم خالفوا وانتهكوا وصايا الرب العشر التي أعلنها موسى وشرحها باسم الرب. والمعصية التي يقترفها بعض الآثمين من الرجال والنساء تحل لعنتها على الطائفة برمتها، فالخطيئة تخصُّهم جميعاً، وعلى كل منهم أن يدفع ثمن هذه الخطيئة وأن يكفر عن الجميع، وعلى الجميع أن يكفروا عن الفرد، فقد شبه الأنبياء، في لغتهم الرمزية الشعب الخاطئ بـ «النساء الزانيات».

إن أسوأ تقريع يمكن أن تُقذف به المرأة هو اتهامها بأن لها علاقات جنسية قبل الزواج أو خارج بيت الزوجية: «هكذا أيضاً المرأة التي تترك بعلها وتجعل له وارثاً من الغريب. لأنها أولاً عصت شريعة العلي، وثانياً خانت رجلها، وثالثاً تنجست بالزنى، وأقامت نسلاً من رجل غريب. فهذه يؤتى بها إلى الجماعة وتُبحث أحوال أولادها. إن أولادها لا يتأصلون وأغصانها لا تثمر وهي تخلف ذكراً ملعوناً وفضيحتها لا تمحى». ونقرأ «زنى المرأة في طموح البصر ويعرف من جفنيها، واظب على مراقبة البنت القليلة الحياء لئلا تجد فرصة فتبذل نفسها. تَنَبَّه لطرفها الوقح ولا تعجب إذا عقتك. تفتح فمها كالمسافر العطشان، وتشرب من كل ماء صادفته، وتجلس عند كل جذع وتفتح الكنانة تجاه كل سهم». لكن اللوم الأشد يقع على أولئك الرجال الذين يستغلون مجاملة الفاسقات من النساء ويستسلمون، دونما قيد، إلى شرب المسكرات، مثلهم مثل جيرانهم الكنعانيين والفلسطينيين عبده الأوثان، لأن «روح الفسق والفجور والميل إليهما قد أغوتهم فكفروا بالرب، وحنثوا في إيمانهم. على قمم الجبال يقدمون الأضحيات وعلى الهضاب يحرقون البخور..» «لا تكن ذا يأس تجاه الخمر، فإن الخمر أهلكت كثيرين. الأتون يمتحن الحديد الممهى، والخمر تمتحن قلوب المتجبرين في القتال. الخمر حياة للإنسان إذا اقتصد في شربها. أي عيش لمن ليس له خمر. أي شيء يعدم الحياة: الموت. الخمر في البدء خلقت للانبساط لا للسكر. الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى. الشرب بالرفق صحة للنفس والجسد. الإفراط من شرب الخمر خصومة

١- مفردها سبط من الكلمة العبرانية شبط ومعناها «عصا» أو جماعة يقودها رئيس بعصا، وكانت تطلق عادة على أبناء يعقوب - المترجم.

٢- لم تسلم شعوب الأرض قاطبة من المحن والبلايا، لكن اليهود، بخاصة، قد جروا على أنفسهم ما جروه لاعتقادهم بأنهم فوق الجميع ديناً وفكراً و.. - المترجم.

ونـزاع. الإفـراط مـن شـرب الخمـر مـرارة للـنفس. السـكر يهـيج غضـب الجاهـل لمصرعه، ويقلل القوة ويكثر الجراح. في مجلس الخمر لا توبخ القريب ولا تحتقره في سروره». إنهم أمثولة تدفع بمحتذيها إلى الفساد، فبادرت الشريعة إلى تحذيرهم بلسـان الـرب: «... إذا عكفـت بنـاتكم علـى الفسـق والفجـور، وإذا زنـت عروسـكم الصـبية، فلسـوف لـن أعاقـب بنـاتكم لعكـوفكهن علـى الفجـور، ولا زوجـاتكم الصـبايا لاقترافهن الزنى...».

النساء الزانيات والفتيات الفاجرات لن يعاقبهن الرب، بل الشريعة هي التي تنزل بهن القصاص إذا ما اضطر من حباً وشغفاً بعشاقهن «أولئك الذين يملكون أعضاء كأعضاء الحمير، ونطفاً كبذار الخيول». إلا أن الرجال يدنسون اسم الرب بمعاشرتهم للمومسات، فهم يقترفون الفاحشة، لا لأنهم قد استسلموا إلى لذة آثمة فحسب، بل لأنهم أيضاً يعرضون أنفسهم، من جراء هذه اللذة، لغواية عبادة الأوثان وخدمتها. بل من المحتمل أيضاً أن ينجرّوا فيشاركوا في العربدات التي ينظمها كهنة بعل وعشتارة، إلهة الحب عند الفينيقيين، تلك الإلهة التي تضحي عابداتها النهمات بعذريتهن بالقرب من المذابح، ويضاجعهن، في حرم المعبد، كل مجهول يلتمس منهن ذلك.

والحال هذه فلا مناص، في نظر بني إسرائيل، من عقاب الرب الذي لا يرحم للتكفير عن الخطايا، فالرب وحده من يعرف وزنها وتقديرها حق قدرها. ولا يفرض هذا الرب الواحد الأحد التوبة، إنه لا يتوق إلى الأضحيات، إذ جاهر أنبياؤه: «الطاعة خير من الذبائح» وقد أملى على الأنبياء أوامره: «لقد أبغضت أعيادكم ورذَّلْتُها ولم تطب لي احتفالاتكم، إني إذا أصعدتم لي محرقاتكم وأضحياتكم لا ارتضي ولا التفت إلى ذبائح السلامة من مُسَمَّناتكم، أقصِ عني زجل أغانيك فإني لا أسمع نغم عيدانك، بل ليجر القضاء كالمياه والعدل كنهر لا ينقطع».

الحق والعدالة ليسا هبة من السماء بواسطتهما كشف الرب لعبده موسى الجوهر، وبواسطهما وضعت التوراة القوانين وأرستها. حدد القانون المسوح به والمنهي عنه، ويصح ذلك على الرجل والمرأة كليهما. ولكن، أليست الشريعة مهددة، إن أسلم الشعب قياده، أثناء محنته، إلى أحد الملوك؟ أو ليس الرب وحده ملك إسرائيل؟ إن النبي صموئيل قد أوجب على الشعب ألا يمنح ثقته إلا للرب وحده، وحذره من عبادة آلهة غريبة إن أراد هذا الشعب التغلب على ما يحيكه الفلسطينيون. فنصح بني إسرائيل بالعدول عن تولية ملك عليهم في خطبة وصفت بأمانة أخلاق ذاك العصر: «.. هذه سنة الملك الذي يملك عليكم، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لعجلته وفرسانه، فيركضون أمام عجلته، ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين، وأكرةً لحرثه وحصاده، وصناعاً لآلات حربه وأدوات عجلاته، ويتخذ بناتكم عطّارات وطبّاخات وخبّازات.

وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده. ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده، ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله، ويعشِّر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم من ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم، فلا يجيبكم الرب في ذلك اليوم».

وعلى الرغم من تحذيرات صموئيل تولى المُلك شاؤول القائد المقدام، لكنه «تمرد على شريعة الرب» ولم يسمع لصموئيل. وتخلى روح الرب عن شاؤول «ليحل روح الشر من لدن الرب، وأخذ يهذي في داخل بيته». «ثم إن داود الفتى اليافع ذا العينين الجميلتين والقامة الممشوقة» قد مسحه صموئيل من بين أخوته فحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً، فصار ملكاً عظيماً وانتصر في ميادين القتال وجَمَّل أورشليم التي جعلها عاصمته. لكنه لم يمتثل بسلوكه للمشيئة الإلهية على الدوام، ففي شبابه كان موسيقياً يعزف على الكنَّارة كأحسن ما يكون العزف، وتغلب داود على جليات الفلسطيني العملاق، وصرعه ثم قطع رأسه وجاء به إلى مليكه، وأحبت ميكال، بنة شاؤول، داوود الذي دفع ثمناً لشرائها مئة قلفة[1] من الفلسطينيين. وبعد أن هرب من حميه تزوج داود، دون أن يردعه رادع، بامرأتين أخريين، في الوقت الذي أعطى شاؤول ابنته ميكال، امرأة داود، لرجل آخر. وقد صرح داود إلى يوناتان، ابن شاؤول، الذي تعلقت نفسه بنفس داود وأحبه كما يحب نفسه: «قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يوناتان لقد كنت شهياً إلي جداً وكان حبك عندي أولى من حب النساء وقد أحببتك حب أم لابنها الوحيد».

واستحثت داود رغبة مطلقة العنان في العيش والتمتع بالحياة، فدفعته دفعاً إلى انتهاك الشريعة بلا انقطاع ليستسلم إلى غرائزه الجموح. كان يرقص بكل ما أوتي من قوة، شبه عار، أمام تابوت العهد، حيث تُحفظ كتب الشريعة الخمسة ثم إنه رأى ذات يوم، بينما كان واقفاً على مشرف منزله، امرأة رائعة الجمال تستحم، فأرسل رسله في طلبها، فجاءت إليه ونام معها، دونما حياء أو رادع، كان اسمها بتشابع وهي زوجة أوريا الحثي، والملك داود يعرف ذلك، ويعرف أنها كانت تستحم لتتطهر من دنس دورتها الشهرية. ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حامل، فسارع داود واتخذ تدابيره بأن وجه أوريا حيث يكون القتال شديداً. «وارجعوا من ورائه فَيُضرب ويموت» وقُتل أوريا، ونما إلى بتشابع خبر مقتله و «ناحت على بعلها». ولما تمت أيام مناحتها أرسل داود وضمها إلى بيته فكانت زوجة له، وولدت له ابناً.

ساء ما فعله داود في عيني الرب. وضرب الرب المولود الذي ولدته امرأة أوريا لداود حتى يئس منه «تضرع داود إلى الله من أجل الولد وهام وبات مضطجعاً على

١- طلب أو شاؤول مهراً لابنتيه مائة قلفة إلا أن داود قدم له مئتي قلفة، حسب ما جاء في سفر الملوك الأول - المترجم.

الأرض، فلما كان اليوم السابع مات الصبي. ونما الخبر إلى داود، فنهض عن الأرض واغتسل وادّهن وغير ثيابه ودخل بيت الرب فسجد ورجع إلى بيته وطلب فوضعوا له طعاماً فأكل». «ذلك أن داود قد أدرك عدم جدوى أنينه ونواحه في نَشْرِ ابنه وإحيائه «عزى داود بتشايع زوجته ودخل عليها واضطجع معها فولدت ابناً فدعاه سليمان وأحبه الرب».

لم تقتصر مخالفة قانون الأخلاق، في قصر داود الملكي، على داود وحده، بل انتهكه بنوه أيضاً، ذلك أن أمنون ابنه قد تدله في تامار أخته من أبيه حتى سقم، فتمارض وطلب من أبيه أن يرسل إليه أخته لتعتني بصحته، ومضت تامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع، فأخذت طحيناً وصنعت له كعكاً، وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال: «تعالي اضطجعي معي يا أخيه». فقالت له: «لا تذلني يا أخي لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل فلا تفعل هذه الفاحشة. فأما أنا فأين اذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل، والآن فكلِّم الملك فإنه لا يمنعني منك، فأبى أن يسمع لكلامها ولكن تمكن منها وغصبها وضاجعها». ولما ثاب إلى رشده وأدرك عظم فعلته «أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً، وكانت كراهيته لها أعظم من الحب الذي أحبها إياه. وقال لها أمنون قومي وانصرفي.. وكان عليها قميص موشى، لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن أقمصة مثل هذه. فجعلت تامار رماداً على رأسها ومزقت القميص الموشى الذي كان عليها، ورفعت يدها على رأسها وذهبت وهي تصرخ. «خفف عنها أخوها أبشالوم وواساها: «كفي الآن يا أخية إنه أخوك، ولا يأخذ من نفسك هذا الأمر». و «سمع داود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جداً، ولكنه لم يحزن نفس أمنون ابنه، لأنه كان يحبه إذ كان بكره» في حين أن أبشالوم قتل أخاه وهرب ثم أنه أخذ يؤلب الشعب على أبيه، فجمع من الرجال ما جمع، وحارب بني قومه في مواقع عدة إلى أن سقط مضرجاً بدمائه في واحدة من أشد معاركه هولاً. ولما نما إلى داود الحبر ارتعش وصعد إلى علية الباب وهو يبكي ويردد: «يا بني أبشالوم يا بني، يا بني أبشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك، يا أبشالوم ابني يا بني».

حتى داوود نفسه لم ينج من عقاب الرب عندما اقترف الخطيئة، إذ أنزل الله به عقاباً لا يرحم على الرغم من عمق توبته وشدة أخلاصه في خدمة الرب بين أبناء شعبه، وقد رفع العهد القديم من شأن الملك داود دون أن يقلل من حجم خطاياه أو أن يختلق له المعاذير. لقد كان ملكاً عظيماً، مسيح الرب، مختاراً، ولكنه كان أيضاً إنساناً لا يملك مقاومة غرائزه فاستسلم إلى الخطيئة، ذلك لأن الخطيئة جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، وأن زمن الطهارة[1] لما يأت بعد، ثم أن سليمان، ابن داود من المرأة الزانية بتشابع، لم يعش حياته على الشكل الأمثل على الرغم مما أحيط به من مظاهر الأبهة والترف. لقد شرف اسمه، المشتق من كلمة شالوم، التي تعني: السلام، وغدا ملكاً مقتدراً

١- ويتحقق هذا التطهير الجذري بطقس المعمودية التي تستمد فاعليتها من الصليب، فقد ضحى المسيح بنفسه من أجل الكنيسة ليقدسها ويطهرها بماء الاستحمام «بينما كانت الفرائض القديمة لا تحدث إلا تطهيراً خارجياً، فإن مياه المعمودية تحررنا من كل قذارة باتحادنا بيسوع القائم من بين الأموات». فالطهارة هي طهارة الروح والجسد معاً - من معجم اللاهوت الكتابي - المترجم.

ذا شأن وسلطان، ووطد في مملكته العدل والنظام، وأسبغ على شعبه رغد العيش والحياة الهنية وجمع لنفسه كل غالٍ ونفيس، فبلغ من الثراء مبلغاً عظيماً، واشتهر بحكمته التي صارت مضرب الأمثال. بيد أو ولعه بالمتعة ذهب به كل مذهب، وبلغ به حداً غَيَّب وراءه حكمته وثراءه. وأقام لنفسه بيت حريم ضمَّ «سبعمائة من الزوجات وثلاثمائة من السراري والخليلات». وقضى حياته في بيت الحريم مستسلماً فيه إلى ألوان الحب، وأي حب. ذلك أن سليمان كان ماهراً في فن الهوى الرهيف والمتعة الرفيعة.

يعد نشيد الأناشيد من أجمل القصائد التي نظمها بنو البشر. وقد تأثر بنو إسرائيل بهذا النشيد غاية التأثر فأدرجوه في الكتب المقدسة، على الرغم من أن موضوعه مجاهرةٌ صريحةٌ بما يختلج في قلب العاشق. كانت خطيئة آدم وحواء الأصلية باعثاً على إقصائهما من الفردوس، غير أن الحب، خارج جنة عدن، قد أُجيز لبني الإنسان، شريطة ألا ينتهكوا، بما يغرفونه من متع، شريعة موسى، لكن سليمان نَصَّب نفسه فوق الشريعة ورأى أن من حقه، بوصفه ملكاً، أن يطالب بامتيازاته فيعشق ويُعشق على مثال الملوك.

كانت النسوة، بين أحضانه، يتنهدن متلهفات: «قبلني بقبلات فمك، لأن حبك أطيب من الخمر، أدهانك طيبة العرف واسمك دهن مهراق فلذلك أحبتك العذارى. أنا سوداء لكني جميلة يا بنات أورشليم كأخبية[1] قيدار كسرادق سليمان، لا تلتفتن إلى كوني سوداء فإن الشمس قد لوحتني. قد غضب علي بنو أمي فجعلوني ناطوره للكروم والكرم الذي لي لم أنطره. أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى وأين تربض عند الظهيرة. لماذا أكون كمن يغشى عليه في إثر قطعان أصحابك.

- هو: ما أجمل خديك بسموط وعنقك بخرز.

- هي: صرة المر حبيبي، بين ثديي مبيته، حبيبي عنقود فاغية لي في كروم عين جدي.

- هو: جميلة أنت يا خليلتي، جميلة أنت وعيناك كحمامتين.

- هي: جميل أنت يا حبيبي وعذب وحجلتنا ذات أزهار، جوائز بيوتنا أرز وروافدنا سرو».

وفي النشيد الثاني نقرأ:

- «هي: أنا وردة الشارون وسوسنة الأودية،

- هو: كالسوسنة بين الشوك، كذلك خليلتي بين البنات،

- هي: كالتفاح في أشجار الغابة، كذلك حبيبي بين البنين.

قد اشتهيت فجلست في ظله، وثمره حلو في حلقي

١- الأخبية هي الخيام، وقيدار اسم لقبائل عربية - المحرر.

أدخَلَني بيت خمره، ورايته عليّ محبة
أسندوني بأقراص من الزبيب
أنعشوني بالتفاح فقد أسقمني الحب.
شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني.
- هو: استحلفكن يا بنات أورشليم بظباء الصحراء وأيائلها أن لا تنهصن ولا تنبهن الحبيبة حتى تشاء.

«صوت حبيبي هو ذا مقبل، وهو يطفر على الجبال ويقفز على التلال.

إني نائمة وقلبي مستيقظ، إذا بصوت حبيبي قارعاً أن افتحي لي يا أختي يا خليلتي يا حمامتي يا كاملتي فإن رأسي قد امتلأ من الندى، وغدائري من قطار الليل، قد نزعت قميصي فكيف ألبسه. قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما. حبيبي أرسل يده من النافذة فتحركت له أحشائي، فقمت لأفتح لحبيبي وكانت يداي تقطران مراً وأصابعي تجري بالمر على مقبض المزلاج. حبيبي أبيض وأشقر علم بين ربوة. رأسه نضار إبريز وغدائره كسعف النخل حالكة كالغراب. عيناه كحمامتين على أنهار المياه، تغتسلان باللبن وهما جاثمتان في وقبيهما. خداه كروضة أطياب وخضيلة رياحين، وشفتاه سوسن تقطران مراً ذكياً. يداه حلقتان من ذهب. وجسمه عاجٌ يُغَشِّيه اللازورد. ساقاه عمود رخام. وطلعته كلبنان جليل كالأرز. حلقه أعذب ما يكون بل هو بجملته شهي.

ويستجيب الرجل، في سكرة عشقه وانتشاء هيامه، لرغبات المرأة الولهى الفاقدة الرشد، فيتغنى بحبها ويمتدح مفاتنها: «جميلة أنت يا خليلتي جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك، وشعرك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد. أسنانك كقطيع مجزوز قد طلع من الاغتسال كل واحدة منه متئم ما فيه عاقر. شفتاك كسمط من القرمز ونطقك عذب.. خداك كفلقة رمانة من وراء نقابك. عنقك كبرج داود. ثدياك كخشفي ظبية توءمين يرعيان بين السوسن. كلك جميلة يا حبيبتي ولا عيب فيك.. شفتاك تقطران شهداً أيتها العروس، وتحت لسانك عسل ولبن. وعرف ثيابك كعرف اللبان. أختي العروس جنة مقفلة ينبوع مقفل وعين مختومة».

«دوائر فخذيك كحلي صاغتها يد صانع حاذق
سرتك كأس مدورة مزاجها لا ينقُصُ
وبطنك صُبْرة حنطة يُسيِّجها السوسن

قامتك مثل النخلة وثدياك مثل العناقيد...».

(في نشيد الإنشاد «أو نشيد الأناشيد» وجهات نظر ثلاث مختلفة:

- الرأي الأول ينظر إلى السفر نظرة حرفية تاريخية ويقول: إن هناك ثلاث شخصيات رئيسية هي: الراعية شولميت وحبيبها الراعي الشاب والملك سليمان الذي يحاول أن يجذبها إليه، بما توفرت لديه من مغريات، إلا أن الفتاة بقيت وفية على محبتها لخطيبها إلى أن يتزوجا في النهاية، والذين يقولون بهذا الرأي يرون أن القصة موضوعة على شكل رواية ذات فصول ومناظر ستة.

- أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يقصرون القصة على اثنين فقط وهما: شولميت وسليمان، إلا أن هذا الرأي لا يفسر ما جاء في هذا النشيد من إشارات إلى الحبيب الراعي والمراعي والجبال، مما لا يتفق وحياة سليمان الذي نشأ في أورشليم وعاش فيها.

- أما الرأي الثالث فهو الرأي الرمزي أو المجازي، وذلك أن هناك معنى خفياً في كل دقيقة من دقائق النشيد، فكل محبة إنسانية بشرية صحيحة في رأي الرمزيين والمجازيين إن هي إلا رمز لمحبة الله لشعبه وانعكاس لهذه المحبة الإلهية. وقد أخذت هذا التفسير الرمزي الكنيسة المسيحية وفسرته بوصفه تعبيراً عن محبة المسيح للكنيسة التي لا يمكن أن تنفصل عنه مهما كانت إغراءات العالم.

وقد اختلف المفسرون أيضاً في مؤلف النشيد، فبضعهم يقول إنه لسليمان، وبعضهم الآخر يعتقد أن هذا السفر كتب عن سليمان (ملخص ما جاء في قاموس الكتاب المقدس - المترجم).

إن العهد القديم كتاب صارم بحكمه متزمت بأخلاقه، يُعَرِّي، دونما موارية، خطايا الإنسان الذي لا يني، لضعفه وتمرده، ينتهك أوامر الرب وشريعته، ويجني على نفسه فيصب الرب عليه جام غضبه وشديد قصاصه. ومع ذلك فإن الكتابات المقدسة تلك تصف لنا، بصراحة مؤثرة أخلاق بني إسرائيل وتقاليدهم، الحميدة منها والفاسدة. أما نشيد الإنشاد[1] فإنه أغنية إنسانية تشيد بالحياة ومسراتها وتدعو الرجال والنساء معاً إلى الشبع والارتواء وممارسة الحب.

١- يعود نظم (تأليف) هذا النشيد إلى النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد من قاموس المؤلفات العالمية - المترجم.